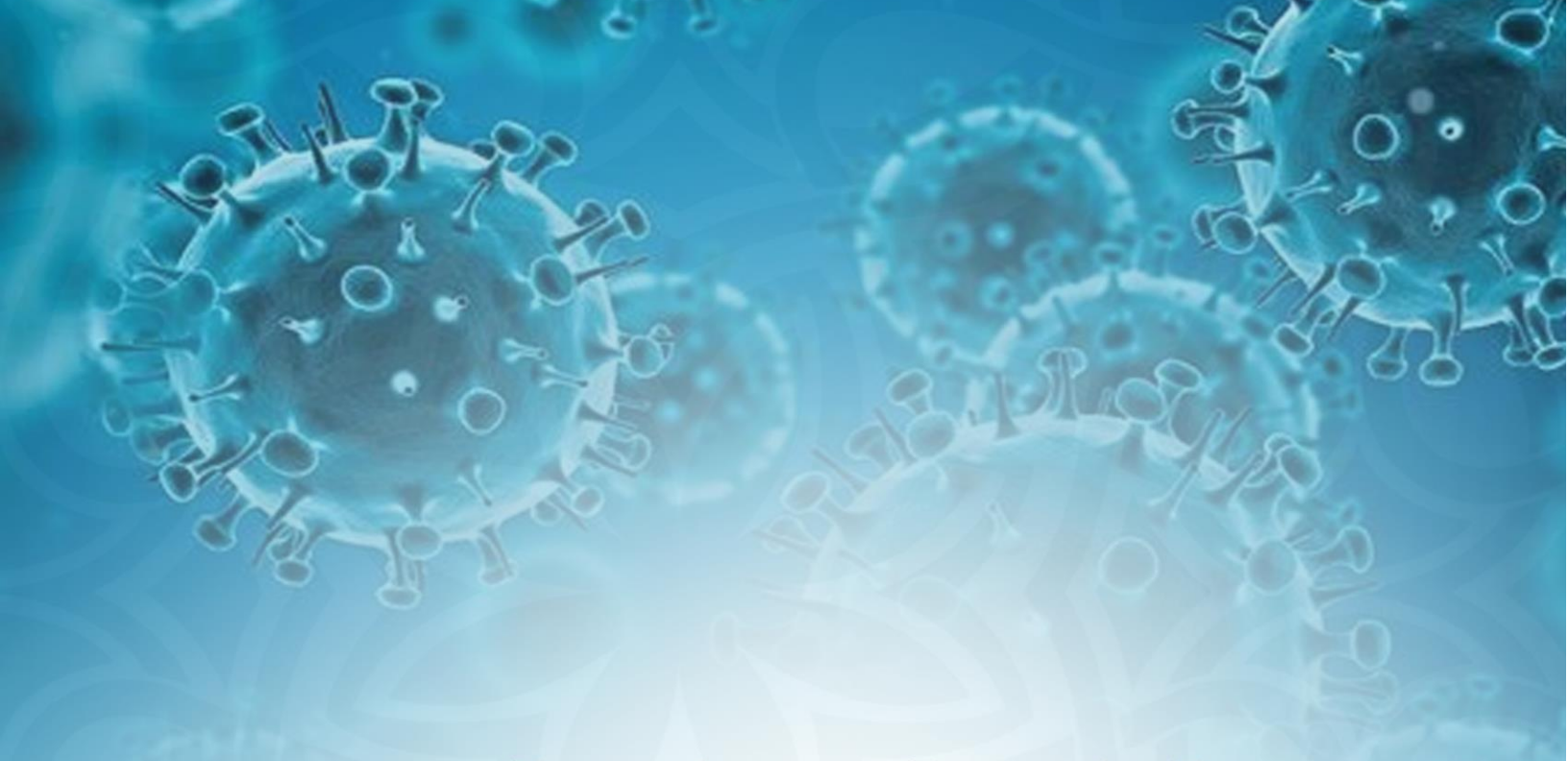

التاريخ الاجتماعي الديني
للأوبئة لدى المسلمين

د. بليل عبدالكريم

شبكة الألوكة
www.alukah.net

www.alukah.net
شبكة الألوكة

جامعة الفرات، كلية الإلهيات. الندوة الدولية الدين والمدينة (الدين والصحة). يومي ٧-١٠ أكتوبر ٢٠٢١.

التاريخ الاجتماعي الديني للأوبئة لدى المسلمين.

الكاتب: د. عبد الكريم بليل.

أستاذ مشارك. جامعة الشاذلي بن جديد، كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية، الطارف/الجزائر.

.Bellkar23@yahoo.com +٢١٣٦٦٠٤٥٧٥٤٥

(https://orcid.org/0000-0002-9864-1812)

ملخص:

تعاقبت على المسلمين نوازل الجوائح على فترة من الدهر، فكانت حاصدا للأرواح والثقافات وتاريخها في أمصار كثيرة، أطاحت بأنظمة حكم وانهارت دول وممالك، واضطربت عقائد الناس، فكان منها ما تحول عنه أصحابه لمذاهب أخرى، وتبدلت السلوكيات ومناهج التفكير، وتغيرت التركيبة العرقية لدول بسبب الهجرات الكبرى، واختفت زراعات وحيوانات من أراض، وتلاشت منظومات اقتصادية، وتغيرت مفاهيم العلم والدين والأسطورة والخرافة. أخرجت الجوائح أفضل ما في البشر، وأسوأ ما فيهم. حينما نزل الوباء بمصر والشام، والمغرب، والعراق، والأندلس. فقدم المؤرخون صوراً عن تلك الأوبئة وآثارها وعواقبها في الأرض، كما بحثت في ذلك كتب النوازل الفقهية وبينت الأحكام التعبدية والعقدية والقضائية لما طرأ على

شبكة الألوكة - قسم الكتب

الناس من صدمات نفسية واجتماعية واقتصادية، غيرت في البنية الاجتماعية والأنماط الفكرية وأثرت في النماذج المعرفية والنظم السياسية والأخلاقية للمجتمع الإسلامي والإنسانية..

الكلمات المفتاحية: علم الاجتماع الديني، المجتمعات الإسلامية، الأوبئة، فقه النوازل، مقاصد الإسلام.

summary:

Pandemics followed, and it was the end of lives, cultures and their history, countries and kingdoms fell, people's beliefs were disturbed, some of them transformed, behaviors and methods of thinking changed, the ethnic composition of countries changed due to major migrations, crops and animals disappeared from the lands, and economic systems vanished, The concepts of science, religion, myth and superstition changed .Pandemics brought out the best in people, and the worst in them. When the epidemic descended in Egypt, the Levant, Morocco, Iraq, and Andalusia. Historians presented pictures of these epidemics and their effects and consequences on the earth, as well as the books of jurisprudential calamities and the devotional, doctrinal and

judicial rulings that have occurred to people from psychological, social and economic shocks, which changed the social structure and intellectual patterns and affected the cognitive models and the political and moral systems of Islamic society and humanity . This is what we ask to expand on to clarify the social and religious change that befell Muslim religious communities in terms of their cognitive model and its collective and individual devotional behavioral applications, and the extent to which the concepts of social, political and economic transactions have changed, and their impact on the fatwa industry during the general calamity.

Keywords: religious sociology, Islamic societies, epidemics, jurisprudence of calamities, the purposes of Islam.

جامعة الفرات، كلية الإلهيات. الندوة الدولية الدين والمدينة (الدين والصحة). يومي ٧-١٠ أكتوبر ٢٠٢١.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

مقدمة:

تعاقبت على المسلمين نوازل الجوائح على فترة من الدهر، فكانت حاصدا للأرواح والثقافات وتاريخها في أمصـــار كثيرة، أطاحت بأنظمة حكم وانهارت دول وممالك، واضـــطربت عقائد الناس، فكان منها ما تحول عنه أصـــحابه لمذاهب أخرى، وتبدلت الســـلوكيات ومناهج التفكير، وتغيرت التركيبة العرقية لدول بســـبب الهجرات الكبرى، واختفت زراعات وحيوانات من أراض، وتلاشت منظومات اقتصادية، وتغيرت مفاهيم العلم والدين والأسطورة والخرافة.

أخرجت الجوائح أفضـــل ما في البشـــر، وأســـوأ ما فيهم. حينما نزل الوباء بمصـــر والشـــام، والمغرب، والعراق، والأندلس. فقدم المؤرخون صـــوراً عن تلك الأوبئة وآثارها وعواقبها في الأرض، كما بحثت في ذلك كتب النوازل الفقهية وبينت الأحكام التعبدية والعقدية والقضـائية لما طرأ على الناس من صدمات نفسية واجتماعية واقتصادية، غيرت في البنية الاجتماعية والأنماط الفكرية وأثرت في النماذج المعرفية والنظم السياسية والأخلاقية للمجتمع الإسلامي والإنسانية.

وهو ما نروم التوســـع فيه لبيان التغير الاجتماعي الديني الذي لحق بالمجتمعات الدينية المســـلمة من حيث نموذجها المعرفي وتطبيقاته الســـلوكية التعبدية الجماعية والفردية، ومدى تغير مفاهيم المعاملات الاجتماعية والســـياســـية والاقتصـــادية، وتأثيرها على صـــناعة الفتوى حين النازلة العامة.

الإشـــكالية البارزة في البحث هي: كيف **تعامل المجتمع الديني المســـلم مع نوازل الجوائح العامة؟**

الأسئلة الفرعية: – ماهي تأثيرات الجوائح على المفاهيم التطبيقية العملية والعلمية في المجتمعات المسلمة قديما؟

– هل أسس الفقهاء لفقه نوازل الأوبئة؟

– ماهي آثار الأوبئة على المجتمعات الدينية الإسلامية قديما؟

نسعى بنسق البحث وفق منهج وصفي استقرائي، ومنهج تحليلي، بتتبع تأريخ التحولات الاجتماعية والدينية التي ترتبت عن اجتياح الأوبئة لأراضـي المسـلمين. وتأصـيلات العلماء لفقه النوازل عبر بناء قواعد مقاصـــد الإســـلام بالنظر في التغير الاجتماعي الطارئ على المجتمع الديني، وإجلاء نسبة الحراك الاجتماعي الديني الذي انكشف بعد رفع الوباء علميا وعمليا.

الكلمات المفتاحية: علم الاجتماع الديني، المجتمعات الإسلامية، الأوبئة، فقه النوازل، مقاصد الإسلام.

جامعة الفرات، كلية الإلهيات. الندوة الدولية الدين والمدينة (الدين والصحة). يومي ٧-١٠ أكتوبر ٢٠٢١.

١. نموذج لتاريخ الأوبئة والأمراض المزمنة.

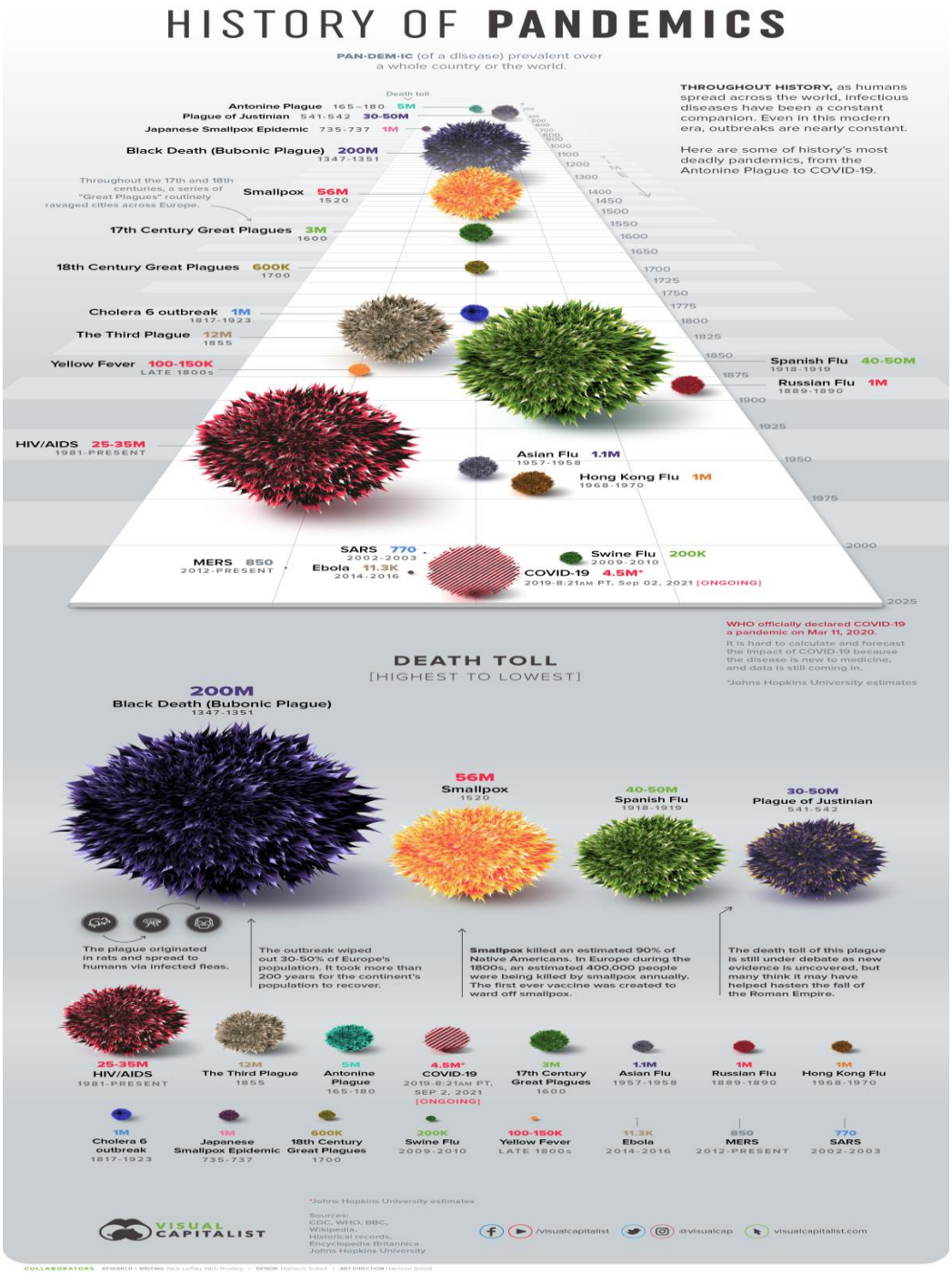

(رسم بياني رقم ٠١: الأوبئة والأمراض المزمنة أودت بحياة عدد كبير من الأشخاص على مر العصور.) (LePan،2020)

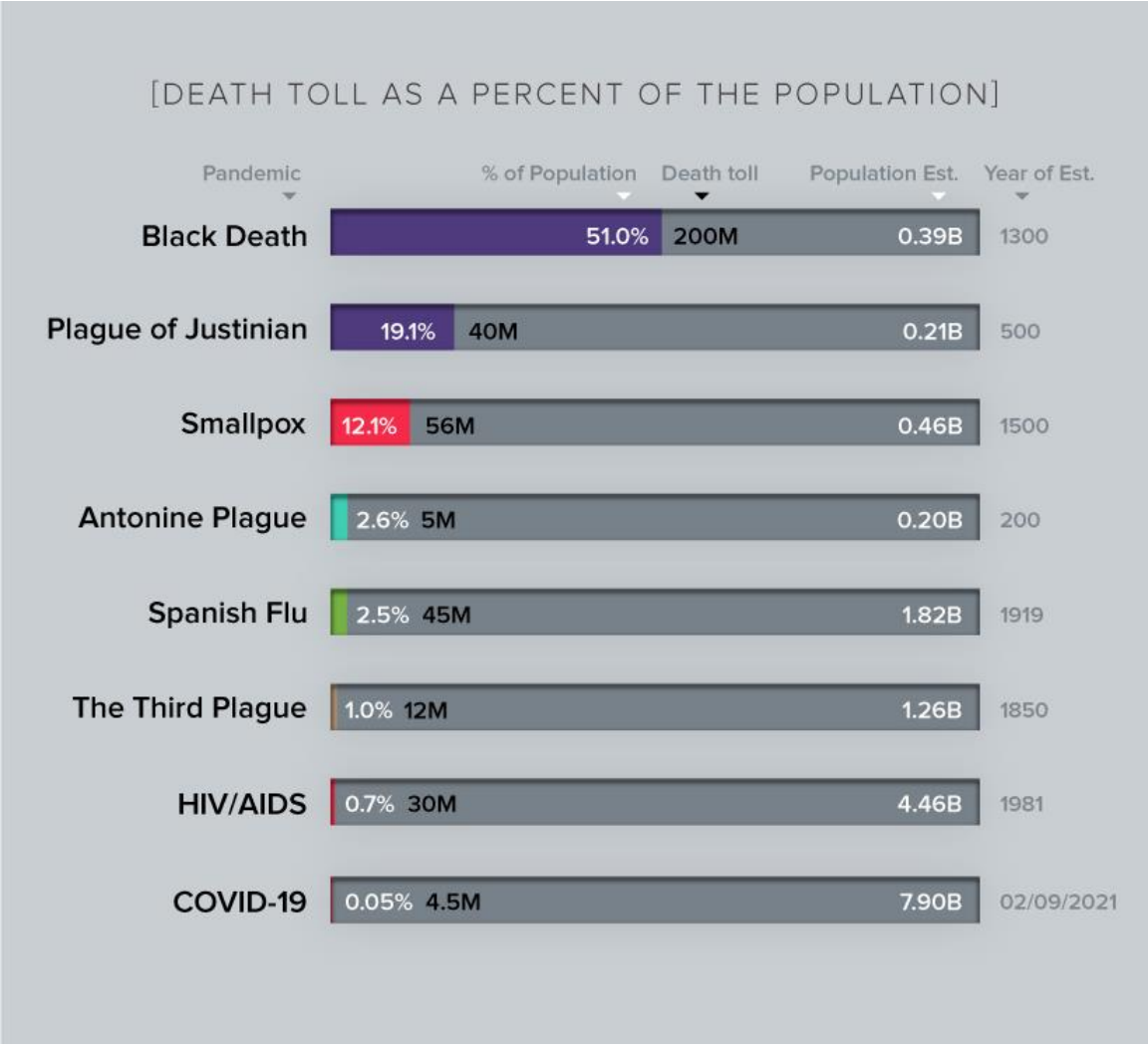

(رسم بياني رقم ٠٢: أعداد الوفيات لكل جائحة كحصة من إجمالي عدد سكان العالم المقدرة في ذلك الوقت.)(LePan،2020)

٢. كتب عن الطاعون:

- (كتاب الطاعون) ابن أبي الدنيا.
- (الطب المسنون في دفع الطاعون) لابن أبي حجلة.
- (بذل الماعون في فضل الطاعون) ابن حجر العسقلاني.
- (تسلية الواجم من الطاعون الهاجم) ابن داود.
- (ما رواه الواعون في أخبار الطاعون) السيوطي.
- (منحة الطالبين لمعْرِفَة أسرار الطواعين) علي الخواص.
- (مجنة الطاعون والوباء) إلياس بن ابراهيم اليهودي الإسباني.
- (خير الماعون في منع الفرار من الطاعون) محدث مباركفورى.
- (الأمراض والأوبئة وآثارها على المجتمع المصري (١٧٩٨-١٨١٣) تاريخ المصريين) ليلى السيد عبد العزيز.
- (المغرب الإسلامي في مواجهة الطاعون، الطاعون الأعظم والطواعين التي تلته) أحمد السعداوي.
- (عظماء ماتوا بالطواعين والأوبئة) أبو عبد الرحمن أحمد بن محمد.
- (تاريخ الأوبئة والمجاعات بالمغرب) محمد الأمين البزاز.
- (الأوبئة بالجزائر العثمانية) خير الدين السعيدي.

- (تحفة الأحياء بالكلام على الطاعون والوباء) محمود الحنفاوي.
- (جوائح وأوبئة مغرب عهد الموحدين) الحسين بولقطيب.
- (الدروازة – الطاعون ١٨٣١) هيثم بودي.
- (الطاعون في العصر الأموي؛ صفحات مجهولة في تاريخ الخلافة الأموية) أحمد العدوي.
- (الطاعون وأحكامه) شمس الدين محمد بن محمد المنبجي.
- (الطاعون: الأرشيف المهمل في بلاد المسلمين) حمزة عليوي.

٣. أشهر الأوبئة والطواعين في بلاد المسلمين:

قال المؤرّخ أبو الحسن المدائني (ت: ٢٢٥ هـ) إن الطواعين العظام المشهورة في الإسلام خمسة، هي:

- **طاعون شيرويه**: بالمدائن (٥ هـ/٦٢٦م).
- **طاعون عمواس**: بالشام في عهد عمر رضي الله عنه. (١٨ هـ/٦٣٩)
- **طاعون الجارف**: بالبصرة (٦٩هـ/ ٦٨٨م).
- **طاعون الفتيات**: بالعراق والشام (٨٧هـ/ ٧٠٥م).
- **طاعون الأشـراف**: بالعراق والشـام ومصـر (٨٧ هـ/ ٧٠٥م). (بكري، ١٩٧٣، ٣٠٤/٢).
- **طاعون عدى بن أرطاة**: سنة ١٠٠ هـ.
- **طاعون غراب**: سنة ١٢٧ هـ. (الدينوري، ١٩٩٢، ٦٠١—٦٠٢).

- **طاعون مسلم بن قتيبة:** بالبصرة (١٣١هـ/ ٧٤٨م).
- **طاعون:** في بلاد المغرب والأندلس عام ٥٧١هـ.
- **طاعون بغداد:** انتشر من بعداد إلى الشام في سنة ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م
- **الطاعون الأعظم:** بمصر والشام سنة ٧٤٩هـ/١٣٤٨م و٧٨٧هـ/ ١٣٨٥م.
- **طاعون الفناء العظيم:** بحلب ثم الشام سنة ٧٩٥هـ.
- **الطاعون الأعظم:** من الأناضول إلى الشام ومصر، سنة (٨٣٣هـ).
- **طاعون التجار:** في تونس والجزائر والمغرب سنة ١٧٩٨م.
- **طاعون ١٧٠٢–١٧٠٥:** دام ٦ سنوات في مدينة طرابلس الليبية.
- **طاعون ١٧٨٤ – ١٧٨٥:** مدينة الإسكندرية وباء الطاعون عام ١٧٨٣.
- **طاعون ١٧٩٤– ١٨٠٠:** انتقل الوباء من الجزائر.
- **طاعون ١٨١٨ – ١٨٢٠:** انتشر من مصر إلى بلاد المغرب العربي.
- **كوليرا ١٨٤٩ – ١٨٥٠:** انتشرت في تونس.
- **كوليرا ١٨٥٦:** عاد وباء الكوليرا من طرابلس.

وقد أصيب المسلمون في عهد بني أمية بقرابة عشرين طاعونا، وغيرها من الكوارث اللاحق كتبعات للطاعون من آثار اقتصادية وسياسية واجتماعية.

٤. الآثار الاجتماعية:

تعرضت البشرية لأوبئة كانت سببًا في هلاك الملايين. وبسبب ضعف الآليات الإدارية والتعليمية والصناعية، وهشاشة هيكل النظام الصحي، وانتشار الممارسات الاجتماعية غير السليمة، فقد تناقص عدد سكان العالم القديم بشكل كبير. وكان من تداعيات الطاعون الجارف:

- التعطيل الجزئي للتجارة عبر طريق الحرير.
- تراجع الإنتاج.
- تقويض المعاش.
- انخفاض عدد السكان.
- توسيع رقعة الفقر.
- انتشار المجاعات.
- الفوضى.
- الخوف من الآخرة.
- الظن بنهاية الإنسان والكون.
- الانكفاء إلى الخرافات.
- طلب المعجزات للخلاص من الهلاك الدنيوي. (حسين، ٢٠٢٠)

والطواعين والأوبئة أخطار تهدد أمن الدول وتؤذن بزوالها وإدبارها، فكان **طاعون عمواس** عظيم الخطر على المسلمين وأفنى منهم مات فيه خمسة وعشرون ألفاً، من بينهم خيرة أمرائهم. (الحِميرى، ١٩٨٠، ٤١٥)، وهو عددٌ يوازي نصفهم بالشَّام، فتخوَّف من ذلك المسلمون، وانتبه عمرو بن العاص لهذا، واستشعروا الخطر من قبل الرُّوم. "كان ذلك الطاعون- يعنون طاعون عمواس- موتانا لم ير مثله، طمع له العدو في المسلمين، وتخوفت له قلوب المسلمين، كثر موته، وطال مكثه، مكث أشهرا حتى تكلم في ذلك الناس."(الطبري، ١٣٨٧، ٦٣/٤)

وكانت جل الطواعين تأتي بعد الحروب وكثرة الجثث أو الكوارث كالمجاعات والزلازل والفيضانات، فقد كانت طاعون عمواس بعد معارك المسلمين مع الروم، وعندما اجتاح المغول بغداد ودمروها وأبادوا أهلها في سنة ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م:

"تعطلت المساجد والجماعات والجمعات مدة شهور ببغداد.. ولما انقضى الأمر المقدر وانقضت الأربعون يوماً بقيت بغداد خاوية على عروشها ليس بها أحد إلا الشاذ من الناس، والقتلى في الطرقات كأنها التلول، وقد سقط عليهم المطر فتغيرت صورهم وأنتنت من جيفهم البلد، وتغير الهواء فحصل بسببه الوباء الشديد، حتى تعدى وسرى في الهواء إلى بلاد الشام، فمات خلق كثير من تغير الجو وفساد الريح، فاجتمع على الناس الغلاء والوباء والفناء والطعن والطاعون، فإنا لله وإنا إليه راجعون." (ابن كثير، ج١٣، ٢٠٣).

تسببت الأوبئة من الناحية الاجتماعية في التالي:

- اختلال التركيبة السكانية.
- تباين كبير في الكثافة السكانية بين المدن والقرى، إذ أن كثيراً من القرى اختفت تماماً بفعل الوباء.
- الذهاب إلى القرى والأرياف والجبال لنظافة هوائها، ومائها.
- تغير ديموغرافي، حيث قل عدد الفلاحين والحرفيون والجند.
- قلت المنتوجات والمحاصيل الزراعية والحيوانية.
- غلاء شديد في الأسعار، واحتكار السلع.
- انخفاض حاد في القدرة الشرائية، بسبب التضخم وانخفاض قيمة الدينار الذهبي.
- السرقة والاحتيال من المحتاجين والمعدمين.
- انهيار أخلاقي في المجتمع بانتشار السرقات والاختطاف والاغتصاب.
- هلاك الكثير من الأتقياء ورجال الدين والعلماء الصالحين.
- فراغ في المرجعية الدينية والعلمية.
- انتشار الجهل والخرافات والمشعوذين والمنجمين.
- كثرت الأراجيف والإشاعات.

- بناء المارستان (مستشفيات) في مدن الشام جميعها، لمداواة ورعاية المطعونين والمصابين بالأوبئة كالحمى وغيرها.
- إنشاء حوانيت أو مغاسل الموتى، تختص بتغسيل وتكفين الفقراء من موتى المسلمين ثم يتم دفنهم بسرعة.
- أخذ أهل الصلاح والعباد من الناس يتوبون إلى الله ويستغفرون ويزيدون من العبادات.
- شرع بعضهم في إغلاق حوانيت الخمر، وابتعد الناس عن ارتكاب الفواحش والمنكرات.
- تطبيق الحجر الصحي، بعزل المرضى، ومنع المخالطة، والانتقال للأراضي العالية لنقاء هوائها. (الطراونة، ١٩٨٢، ٥٤–٥٦)

مثل الطاعون إبادة جماعية لكثير من الشعوب وأهل المدن، حتى أنه أباد عشائر وقبائل بأكملها، وكانت الأسرة تهلك لا يبقى فيه إلا الفرد أو اثنين، وقد روي أن أنس بن مالك مات له ٨٣ أو ٧٠ ابنا. (الذهبي، ١٤١٣، ٢٩٥/٦)، وكانت الدار المكتظة بالبنين والأهل تصبح لا وارث لها، وبلغت درجات الوفيات ل ٥٠٠ ميت في اليوم الواحد في المدينة الواحدة. وأبيدت قرى كاملة؛ فخرب عمرانها بعد أن خلت دورها من أي حياة، فكانت كأن لم تحيا من قبل. "(ابن كثير، ج١٤، ٢٦١).

فتدهور القطاع الاقتصـــادي بســـبب انهيار الزراعة والرعي بعد نفوق الحيوانات وهلاك الفلاحين أو هجراتهم، مما ســـارع لانهيار الموارد المالية للدولة. وكان النمو الديمغرافي والتوزيع الســـكاني واختلال التركيبة الاجتماعية أهم عامل في انهيار اقتصـــاد الدولة وهو ما دفع الولاة للتســـريع لإصلاح الوضع بإجراءات بعضها مؤقت وبعض رفضه الخليفة وأخرى كانت ناجحة، منها:

- نقل ملكية الأراضي الخربة للدولة.
- رفع الجزية على من أسلم حديثا من أهل الذمة، وهو ما رفضه الفقهاء والقضاة، فألغي بعد مدة من تفعيله.
- رفع قيمة الجباية والخراج، ثم ألغي.
- تقدير الخراج مع استثناء الأراضي الخربة من المزروعة.
- إعادة المهاجرين برفق أو قسرا لأراضيهم وأعمالهم الزراعية.
- إقراض المزارعين والرعاة لإعمار أراضيهم وتربية مواشيهم.
- منع ذبح الدواب العاملة في الزراعة والحرث والنقل.
- توطين سكان من السند وخراسان (الزط، والسبابجة)، مع وتهجير الزنج إلى سواد العراق لإعادة الإعمار الأراضي بعد بوارها. وهذا ما غير في التركيبة السكانية للساكنة الأصلية.
- توزيع الأراضي الزراعية على من يصلحها.
- إطلاق مشاريع لزراعة الأراضي تحت رعاية الدولة.

- تشـــجيع الناس على الزواج والإنجاب بفرض عطاء لكل وليد، لتدارك الاختلال الديمغرافي الحاد. (العدوي، ٢٠١٨، ٦٤)

أســـفرت فورات الطاعون المتتالية عن تراجع حاد في أعداد العرب، وهم عماد جيوش بني أمية في العراق والشـام. فقد دأب العوام على ترك قراهم ومدنهم الموبوءة، لتتحول الهجرات العشـوائية المؤقتة إلى دائمة لقطاع عريض منهم، فزاد المشـــردون والمعدومون في مناطق الهجرات، وتحول معظمهم لمتسـولين، وبعضـهم لعبيد في الأسـواق، مما أدى لخراب موطنهم الأصـلي. وكانت المجاعات رديفا للطواعين بسبب الشـلل الاقتصـادي وتوقف جميع الأنشـطة، والتي تسـاهم في ندرة السلع وغلائها أو اختفائها، فتكون بعض المجاعات أكثر فتكا من الطاعون المسبب لها، وسـاهمت الهجرات في تغيير التركيبة السـكانية في كل من البصـرة والكوفة حتى فرغ السـواد وتوقف الخراج والجزية. وكثرت الأرامل واليتامى. (العدوي، ٢٠١٨، ٧٢)، " وكان الرجل بعد الطاعون يلقى المرأة، فلو شاء أن يغصبها نفسها فعل قبل أن يمر أحد."(المبرد، د ت، ٢١٧)

" في عـام ٨٣٣ هـ ابتـدأ بالقـاهرة الطـاعون.. كـان النـاس يرجفون بـه ويلهجون بمجيئه.. واشتدّ خوف الناس من الوباء والطاعون **وكثرت أوهامهم**.. **فذهل الناس وكثرت الأراجيف** بشـدّة الطاعون، وأنه سـيرتدّ لا سـيما وقد ترادفت الأخبار تسـاقط الأطيار من الهواء وموتها، وبدخول الوحوش موتى في البراري ووجود التماسيح والأسماك ببحر النيل والبرك ميّتة طافية على الماء.

وقلّ وجود حمّالين الموتى والغسّـــال وحفّار القبور، حتى صـــاروا يحفروا حفرة كبيرة.. وسـرقت الأكفان من على الموتى، ونبشـت الكلاب كثيرا منهم، وأكلت من أطراف الموتى.

ووقعت فيه نوادر وغرائب وأهوال، وصار الناس لا يهجعون من الليل إلاّ القليل، وهم في شـغل شـاغل لأجل حفر القبور وتجهيز الأموات، وصـاروا يباتون بهم في الليل في المقابر حتى يتهيّأ لهم من يحفر." (ابن شـــاهين الظاهري، ١٤٢٢، ٤/٢٦٤-٢٧١)

وكـان النـاس في الطـاعون " لا يجزعون فيـه على موتاهم كجزعهم في غير الطـاعون، وذلك لتأسـي الناس بعضـهم ببعض، ولما يدخلهم من الخوف، فكل إنسـان يخاف على نفسه فيسلو عن الولد والأهل والقرابة.

.. مات لأنس بن مالك فيه ثلاثة وثمانون ابناً ويقال: وســـبعون. ومات لعبد الرحمن بن أبي بكرة أربعون ابناً، وهرب عبيد الله بن عمير، مات له ثلاثون ابناً، وإنما هرب بهم من الطاعون.. مات في الطاعون لصدقة بن عامر المازني سبعة بنين في يوم واحد.. هرب المرقع بن العلاء، أحد بني ربيعة ابن مالك بن زيد مناة، من الطاعون، وله اثنا عشر ابنا، فماتوا جميعاً."(المبرد، د ت، ٢١٦)

في ســنة ١٢١٥ وقع طاعون عظيم، انطلق من الأناضــول إلى مصــر، وكاد أن يبيد الناس أجمعين، فأغلقت الأسـواق، وقلت الأكفان، والناس في فاقة كبيرة. يقول **الجبرتي**: "ولقد مكثت شـهرًا

بدون حلق رأســـي لعدم الحلاق.. وتعطلت المســـاجد من الآذان والإمامة لموت أرباب الوظائف، واشتغال من بقي منهم بالمشي أمام الجنائز والسبح والسهر.

وتعطل الزرع من الحصـاد، ونشـف على وجه الأرض وأبادته الرياح لعدم وجدان من يحصـده، وعلى التخمين أنه مات الثلثان من الناس."(لجبرتي، ٢٠٠٤، ٤٣٩/٢)

كان لتغير البنية الديمغرافية والطبقية آثار خطيرة على عوائد الناس الاجتماعية، فتحول العامل لمتسـول أو ســـارق، وقل التكافل الاجتماعي في مواطن الهجرات بســـبب الانهيار الاقتصـــادي والاضطراب السياسي، وساد الفزع والقنوط وفقدان الأمل بعد انقطاع الأنساب والأعقاب، وهو ما ترتب عنهم حالات من الغليان الاجتماعي الذي أفرز ثورات عدة تمردت على الدولة المركزية، وتحولت لفرق دنية ذات أبعاد سياسـية واجتماعية، فكان الشـيعة يحرضـون على بني أمية ويحملونهم سبب الكوارث ويؤكدون أنها عقاب لهم، ويبشرون بهلاك دولتهم، وزاد الإقبال على مذاهبهم في أزمنة الطواعين، ومثلهم الخوارج فقد كثر سـوادهم واشـتد بأسـهم وتوسـعت مقالاتهم الكلامية العقدية زمن الأوبئة، وانتهزوا فرصـتها لقتال بني أمية، ونشـر أفكارهم، وهو ما يثبت بمقارنة تواريخ معاركهم.

ولد الاضطراب الاجتماعي بسبب الاضطراب الصحي والاقتصادي دافعا للحرب على الدولة سياسيا وعقديا، ومنا أن من العلماء من نسب علة هلاك بني أمية لانتساب الجعد بن درهم وغيلان الدمشـــقي لهم وســـكوتهم عن مقالاتهم في بدايات ظهورها. ومن ذلك " أن دوراً كثيرة مات

أهلها. فلما قدم الحجاج هدمها مخافة أن يكمن فيها الخوارج، واشترى الناس دوراً كثيرة فدفنوا فيها." (المبرد، د ت، ٢١٧)

لجأ بعض الناس لتحويل الدور إلى قبور بسد أبوابها ومنافذها بالطين على أسر كاملة هالكة بالوباء، وعند ارتفاعه تفتح وتدفن الرفات، وتسلم الممتلكات للورثة، مما ساهم في انحسار الوباء، لكنت الضواري كانت تنزل من الجبال والغابات لأكل الجثث، وكثرت السرقات والاعتداء على النساء واغتصابهن وسلب البيوت. (العدوي، ٢٠١٨، ٧٣)

وحين كثر الموت في المدن المكتظة فر الناس للبراري والجبال لنقاء هوائها، وتبين للحكماء أن مواطن المرض ارتفعت في الشوارع المكدسة بالساكنة من بيوت الفقراء والأحياء المهمشة، لما يجتمع فيها من قلة ماء ونظافة محيط وصرف للقاذورات وغيرها، وهو ما حبس الهواء ومنع الرياح من الولوج وتحريك الأهواء والرطوبة لتجفيفها ونقل محاملها من الأمراض (البكتيريا، الجراثيم، الفطريات، الفيروسات)، وقد تنبه لهذا الحكماء والمعماريون، فكانت البنايات أكثر تهوية وضاءة بالشمس، والمنازل أكثر تباعدا، لكن في أواخر الدول يعيث الفساد والفقر تتلاشى قيم المعمار والصحة.

" وقوع الوباء.. سببه – في الغالب – **فساد الهواء بكثرة العمران لكثرة ما يخالطه من العفن والرّطوبات الفاسدة.**

وإذا فسد الهواء وهو غذاء الرّوح الحيوانيّ وملابسه دائما؛ فيسري الفساد إلى مزاجه، فإن كان الفساد قويا وقع المرض في الرّئة...

وسبب كثرة العفن والرّطوبات الفاسدة في هذا كلّه **كثرة العمران ووفوره آخر الدّولة...**

ولهذا تبيّن في موضعه من الحكمة أنّ: **تخلّل الخلاء والقفر بين العمران ضروريّ ليكون تموّج الهواء يذهب بما يحصل في الهواء من الفساد والعفن بمخالطة الحيوانات، ويأتي بالهواء الصّحيح.**

ولهذا أيضا: فإنّ الموتان يكون في المدن الموفورة العمران أكثر من غيرها بكثير كمصر بالمشرق وفاس."(ابن خلدون، ١٩٨٨، ٣٧٦–٣٧٧)

ومن هنا كانت نصيحة عمرو بن العاص بالانتقال للجبال لهوائها النقي والتباعد، مما حسر الوباء، وبمثلها صنع الناس بعده.

" قال الكلبي: كان سبب نزوله الرُّصافة الهرب من الطاعون. وكذا كان بنو أمية ينزلون البراري، فوقع طاعون بدمشق، فخرج هشام إلى موضع الرُّصافة. فلما خرج قيل له. لا تخرج، فإنَّ الخلفاء لا يُطْعَنُون وإن الطاعون لا يصيب أحدًا من الملوك فقال: تريدون أن تجرّبُوا فيَّ؟! وبنى قصَرين عظيمين بالرُّصافة، وكانت مدينةً عتيقةً من مدائن الروم، وقصد أيضًا القرب من العراق والجزيرة والشَّام."(سبط ابن الجوزي، ١٤٣٤، ٢١٣/١١)

www.alukah.net
شبكة الألوكة

٥. الأثار السياسية:

يرى محمد عفيفي أن: مشكلة الأوبئة ظلت في العالم الإسلامي ترتبط ب (**مفهوم الدولة**) فلم تكن الدولة في الشرق الإسلامي تشرف على أمور التعليم والصحة، بل تتركهما إلى (**المحسنين**) الذين يتطوعون لبناء المدارس والمارستان (مستشفى). (عبد الرازق – فياض، ٢٠٢٠)، مع العلم أن دولا إسلامية كثيرة أنشأت مدارسا ومستشفيات، لكن ليس بالكم الكافي، مقارنة برعاية المحسنين سواء كانون من رجال الدولة أو من الأغنياء أو جماعات تتكافل لتشييد مساجد أو مدارس أو جامعات ومستشفيات، فقد كانت مبادرات تطوعية لا سياسة قائمة للدولة وتحت رعايتها المباشرة. وهو ما زاد من سخط الرعاية واستثمر سياسيا من المعارضة المسلحة أو السياسية كالخوارج والشيعة وكل من ينافس على الحكم من أسرة آل البيت أو الأسر الحاكمة أو القبائل أو حكام الولايات وغيرهم، وأي حاكم يسعى لكسب رعيته كان يسارع لإنشاء المدارس ورعايتها وتشييد المستشفيات، لكن العملية في الغالب لم تواكب التعداد السكاني والتغطية الجغرافية.

أسفرت فورات الطاعون المتتالية في عهد الدولة الأموية عن تراجع حاد في أعداد العرب، وهم عماد جيوش بني أمية في العراق والشام، فنجم عنه عجز الدولة عن مقاومة هجوم البيزنطيين والثورات والتمرد، خاصة الثورة العباسية الوليدة، التي انطلقت من أماكن بعيدة عن مواطن الطاعون، فأعلن العباسيون ثورتهم بين طاعونين كبيرين أصابا الشام والعراق بين عامي

(١٢٧هـ/ ٧٤٣ م – ١٣١ هـ/ ٧٤٨ م)، هما طاعون غراب وطاعون مسلم بن قتيبة. وكان الأخير فصل الختام للدولة الأموية، إذ أسفر عن خسائر مادية وبشرية هائلة، حرمت مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية إرسال المدد إلى واليه على خراسان ليوقف زحف العباسيين. وحين أمر الخليفة مروان بن محمد الأموي عامله على البصرة والكوفة ابن هبيرة بإرسال مدد لخراسان أجاب أن لدي ١٢ ألف جندي، وهو يفيد أن تعداد الجند تراجع إلى أقل من ١٠ % من تعدادهم في عهد معاوية بن أبي سفيان. (العدوي، ٢٠١٨، ٦٤–٦٧)، كما أدى طاعون مسلم بن قتيبة لهلاك عدد كبير من الجند الأموية من قبائل العرب الموالية لهم بالشام والعراق، مما عقد أمورهم،

" ففقد المسلمون من قوتهم أمام الروم البيزنطيين في عهد الاضطرابات الداخلية التي عصفت بدولتهم، فانتهز الإمبراطور البيزنطي جستنيان الثاني هذه الفرصة ونقض المعاهدة التي سبق وأبرمها البيزنطيون مع المسلمين. وساق جيوشه لقتالهم فاجتاح بلاد الشام في عام (٧٠هـ/ ٦٨٩م). فعقد الخليفة عبد الملك بن مروان مع الإمبراطور البيزنطي جستنيان الثاني معاهدة في عام (٧٠هـ/ ٦٨٩م) تعهد الخليفة بمقتضاها أن:

١- يدفع مالا معينا للإمبراطور البيزنطي يبلغ سنويا ثلاثمائة وخمس وستين ألف قطعة ذهبية، وثلاثمائة وخمسة وستين عبداً وثلاثمائة وخمسة وستين جواداً أصيلا، مقابل، وقف الغارات البيزنطية، على الأراضي الإسلامية.

٢- تقتسم الدولتان الإسلامية البيزنطية خراج أرمينيا وقبرص وإيبريا.

٣- تسحب الإمبراطورية البيزنطية المردة من منطقة شمالي الشام إلى ما وراء جبال طوروس داخل آسيا الصغرى.

٤- تستمر المعاهدة مدة عشر أعوام."(طقوش، ٢٠١٠، ٩١—٩٢)

فسنوات الأوبئة لا يخرج المسلمون للغزو، لانشغالهم بمصائبهم وهلاك نسلهم وحرثهم، فاستفاد الأعداء من ذلك. كما في سنة ٨٠ هـ أصاب أهل الشام طاعون شديد؛ فلم يكن لهم ذلك العام غزو. (خليفة بن خياط، ١٣٩٧، ٢٧٩)، وهو خلاف عادتهم بالغزوات الصوائف السنوية. فقد تسبب الطاعون في هلاك بعض الخلفاء كيزيد بن الوليد (ابن كثير، ١٤٠٧، ١٧/١٣)، وأمراء، وكبار الولاة، وهرب الخلفاء والولاة من مدن الطاعون إلى البرية والصحاري، فأقاموا قصورهم عمروا المنطقة، مما زاد الاضطراب الإداري والسياسي في المدن والعاصمة دمشق، وانتقلت العاصمة للرصافة بعد أن عمرها هشام بن عبد الملك ونقل إليها الدواوين.

ومثله وقع مع العباسيين والمماليك والموحدين وغيرهم، فقد كان للأوبئة المتتالية ضربات قاهرة للجيش والسياسية، وسهلت انهيار الدولة، وشجعت التمرد والثورات وغارات الأعداء، وفقد المسلمون الكثير من البلاد، وانقلبت أنظمة حكم بهلاك الأمراء والوزراء والولاة.

وكان الطاعون واحدا من الأسباب الرئيسة لانهيار حكم المماليك، إذ لم تقتصر عواقبه على حصده للسكان في موجات في مصر والشام من العام ١٣٤٧ وحتى الغزو العثماني في العام ١٥١٧،

لكن في المجاعات التي تعقبه والخراب العمراني والانهيار الاقتصـــادي. (عبد الرازق – فياض، ٢٠٢٠)

لأن " **المجاعات والموتان تكثر عند ذلك في أواخر الدّول والسّبب فيه:**

- **أمّا المجاعات:** فلقبض النّاس أيديهم عن الفلح في الأكثر بســـبب ما يقع في آخر الدّولة من العدوان في الأموال والجبايات أو الفتن الواقعة في انتقاص الرّعايا وكثرة الخوارج لهرم الدّولة فيقلّ احتكار الزّرع غالبا وليس صـلاح الزّرع وثمرته بمسـتمرّ الوجود ولا على وتيرة واحدة فطبيعة العالم في كثرة الأمطار وقلّتها مختلفة، والمطر يقوى ويضـــعف ويقلّ ويكثر والزّرع والثّمار والضّـرع على نسـبته إلّا أنّ النّاس واثقون في أقواتهم بالاحتكار، فإذا فقد الاحتكـار؛ عظم توقّع النّاس للمجاعـات فغلا الزّرع وعجز عنـه أولو الخصـاصـة فهلكوا وكان بعض السّـنوات الاحتكار مفقودا فشـمل النّاس الجوع.
- **وأمّا كثرة الموتان** فلها أسباب:
- من كثرة المجاعات.
- كثرة الفتن؛ لاختلال الدّولة، فيكثر الهرج والقتل.
- وقوع الوباء."(ابن خلدون، ١٩٨٨، ٣٧٦)

كانت الأوبئة سببًا في انهيار دول وممالك كبيرة، وإضعاف هيبة رجال الدين في مناطق عديدة، وزيادة الإيمان بالخرافات والطقوس الدينية في مناطق أخرى، وظهور نواة الإصلاح الديني في أوروبا، وتعديل عادات الناس اليومية، وغيرت نظرتهم عن العلم والدين والأسطورة والخرافة، وإجراءاتهم واحتياطاتهم في أوقات الطوارئ والمحن الكبرى، كما أسهمت هذه الأوبئة في تبلور معارف وعلوم أكثر اهتمامًا بصحة الإنسان، ودفعت إلى ابتكار اختراعات وأدوية خففت من آلام ومآسي أخرى. (حسين، ٢٠٢٠)

كما شكَّل التعامل مع الجوائح والأوبئة مُؤشراً مهماً لمعرفة مدى قوّة الدولة وحُسن تدبير قادتها، ينقل لنا المؤرّخون مثلاً أن الخليفة يعقوب المنصور الموحِّدي استحدث حارات خارج الحواضر، جمع فيها المصابين بوباء الجذام، عرفت "بحارات الجذمى" بغية الحد من انتشاره. (بولقطيب، ٢٠٠٢، ٥٦)

٦. الآثار الفقهية والعقدية:

قرارات الخليفة عمر بن الخطاب ووالية عمرو بن العاص رضي الله عنهما بإبعاد الناس الأصحاء عن المناطق الموبوءة والتوجّه إلى الجبال، ونقل الأصحاء الأحياء إلى أماكن عالية لتغيير الهواء لعلهم يعافون، ومغادرته الشام إلى عاصمة الدولة؛ مكّنته من احتواء الأزمة، باتباع حجر صحي وتباعد جسدي وعزل للمرضى وحماية الأصحاء في أعالي أكثر تهوية ونقاء من حيث

المياه والهواء. " قال بن الأثير.. الطاعون المرض العام والوباء الذي يفسد له الهواء فتفسد به الأمزجة والأبدان.

وقال بن سيناء: الوباء ينشأ عن فساد جوهر الهواء الذي هو مادة الروح ومدده."(ابن حجر العسقلاني، ١٣٧٩، ١٠/١٣٣)

لكنها أطلقت جدلاً عقديا وفقهيا حول مسألة القدر والجبر والسببية وأفعال الله تعالى وتعليل الأحكام وفقه المقاصد الكبرى، ربما حسمت بفصل أمير المؤمنين فيها لسلطته العلمية كونه من كبار الصحابة وأعلمهم بدين الله تعالى يومها، وبسلطته السياسية كون القرار بيده، وأن الخليفة بحنكته استشار واختار ولم ينفرد بالرأي.

" عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ خَرَجَ إِلَى الشَّأْمِ حَتَّى إِذَا كَانَ بِسَرْغَ لَقِيَهُ أُمَرَاءُ الْأَجْنَادِ **أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ وَأَصْحَابُهُ**، فَأَخْبَرُوهُ أَنَّ الْوَبَاءَ قَدْ وَقَعَ بِأَرْضِ الشَّأْمِ.

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: فَقَالَ عُمَرُ: ادْعُ لِيَ الْمُهَاجِرِينَ الْأَوَّلِينَ، فَدَعَاهُمْ فَاسْتَشَارَهُمْ، وَأَخْبَرَهُمْ أَنَّ الْوَبَاءَ قَدْ وَقَعَ بِالشَّأْمِ، فَاخْتَلَفُوا، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: قَدْ خَرَجْتَ لِأَمْرٍ وَلَا نَرَى أَنْ تَرْجِعَ عَنْهُ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: مَعَكَ بَقِيَّةُ النَّاسِ وَأَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَا نَرَى أَنْ تُقْدِمَهُمْ عَلَى هَذَا الْوَبَاءِ، فَقَالَ: ارْتَفِعُوا عَنِّي.

ثُمَّ قَالَ: ادْعُوا لِيَ الْأَنْصَارَ، فَدَعَوْتُهُمْ فَاسْتَشَارَهُمْ فَسَلَكُوا سَبِيلَ الْمُهَاجِرِينَ، وَاخْتَلَفُوا كَاخْتِلَافِهِمْ، فَقَالَ ارْتَفِعُوا عَنِّي.

ثُمَّ قَالَ: ادْعُ لِيَ مَنْ كَانَ هَا هُنَا مِنْ مَشْـيَخَةِ قُرَيْشٍ مِنْ مُهَاجِرَةِ الْفَتْحِ، فَدَعَوْتُهُمْ فَلَمْ يَخْتَلِفْ مِنْهُمْ عَلَيْهِ رَجُلَانِ، فَقَالُوا: نَرَى أَنْ تَرْجِعَ بِالنَّاسِ وَلَا تُقْدِمَهُمْ عَلَى هَذَا الْوَبَاءِ.

فَنَادَى عُمَرُ فِي النَّاسِ: إِنِّي مُصْبِحٌ عَلَى ظَهْرٍ فَأَصْبِحُوا عَلَيْهِ.

قَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ: أَفِرَارًا مِنْ قَدَرِ اللهِ؟

فَقَالَ عُمَرُ: لَوْ غَيْرُكَ قَالَهَا يَا أَبَا عُبَيْدَةَ؟ نَعَمْ، نَفِرُّ مِنْ قَدَرِ اللهِ إِلَى قَدَرِ اللهِ، أَرَأَيْتَ لَوْ كَانَ لَكَ إِبِلٌ هَبَطَتْ وَادِيًا لَهُ عُدْوَتَانِ إِحْدَاهُمَا خَصْـبَةٌ وَالْأُخْرَى جَدْبَةٌ، أَلَيْسَ إِنْ رَعَيْتَ الْخَصْـبَةَ رَعَيْتَهَا بِقَدَرِ اللهِ، وَإِنْ رَعَيْتَ الْجَدْبَةَ رَعَيْتَهَا بِقَدَرِ اللهِ؟

قَالَ: فَجَاءَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ وَكَانَ مُتَغَيِّبًا فِي بَعْضِ حَاجَتِهِ، فَقَالَ: إِنَّ عِنْدِي فِي هَذَا عِلْمًا، سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: **إِذَا سَمِعْتُمْ بِهِ بِأَرْضٍ فَلَا تَقْدَمُوا عَلَيْهِ، وَإِذَا وَقَعَ بِأَرْضٍ وَأَنْتُمْ بِهَا فَلَا تَخْرُجُوا فِرَارًا مِنْهُ. قَالَ: فَحَمِدَ اللهَ عُمَرُ ثُمَّ انْصَرَفَ.**" (البخاري، ١٣١١، ٧/١٣٠، رقم ٥٧٢٩)

واختار للمهمة عمرو بن العاص رضي الله عنه الذي جمع بين حديث الرسول صلى الله عليه وسلم في النهي عن الفرار أو الالتحاق بالمناطق الموبوءة، فمنع الخروج أو الدخول، وبين أمر النبي صلى الله عليه وسلم بالتداوي بعد أن تبين للأطباء أن الوباء هوائي السريان، فاختار مناطق النقاهة؛ وهي أعالي الجبال والبراري ليخرج المرضى من مواطن الوباء لمناطق النقاهة طلب للاستشفاء لا فرارا عشوائيا يؤدي لانتشار المرض، بل تحرك تحت رعاية ومراقبة الدولة، باتخاذ الأسباب وطلب العلاج، وهو من مقاصد الإسلام الكبرى في حفظ الأنفس، فتبين لفقهاء الصحابة علة الحديث الأول وهو حفظ الأنفس وتقليل الضرر بمنع انتشار الوباء عبر الفرار العشوائي، و تبصروا في أوامر الرسول بطلب الشفاء والتداوي وحفظ النفس، فاستوعبوا دلالة الحكم الفقهية، وبذلك أنقذوا الكثير من الأرواح وحفظوا الأنفس.

فكانت هذا النوازل وفتاوى فقهاء الصحابة فيها قولا وعملا وإقرارا إرهاصات تأسيسية فقهية لمقاصِد الشريعة، فنوازل الطاعون والأوبئة كانت مدونة في كُتُب الفقه، في شكل آراء ومواقف كبار الفقهاء لما يطرأ من نوازل فقهية على حياة الناس، ومن أهم المسائل التي تجادل فيها الفقهاء وأهل العلم:

- مسألة القدر.
- مسألة السببية.
- مسألة العدوى.
- تعليل أفعال الله تعالى.

- الحكمة من الوباء هل هو ابتلاء أم بلاء، عقاب أم رحمة.
- المواريث، بعد أن أبيدت عوائل وقبائل وانقطعت عصـــبتها، ولم تعقب، وهل يرث الميت ميتا ليرث حي؟
- الصلاة في الجماعات.
- الطهارة بالمياه.
- أحكام الجنائز، من تغسيل، وتكفين ودفن.
- الردم على الموتى.
- سجن المرضى الميؤوس منهم في بيوتهم بلا غسل ولا تكفين ولا دفن.
- دفن موتى كثر في قبر واحد.
- دفن جزء من الميت في قبر، إن اختفى باقي جسده.
- دفن عظام الميت الذي لم يدفن أصلا؛ في قبر.
- عقوبة السرقة والنهب للمضطر قبل هلاكه جوعا.
- ملكية الأموال التي هلك مالكوها من بيوت وأثاث وذهب وأراض ومواشي وغيرها.
- رفع قيمة الجزية.
- فرض الجزية على من أسلم من أهل الذمة، وأهله على دينهم.
- الإنكار على من فر من أرض طاعون، وتعييره والحط عليه.

- أخذ أهل الصلاح والعباد من الناس يتوبون إلى الله ويستغفرون ويزيدون من العبادات، ومن أجل التقرب إليه فقد شرع بعضهم في إغلاق حوانيت الخمر، وابتعد الناس عن ارتكاب الفواحش والمنكرات.
- الفتوى بتطبيق الحجر الصحي، بعزل المرضى، ومنع المخالطة، والانتقال للأراضي العالية لنقاء هوائها.

وكان من فتاوى نوازل الطاعون الصيام ثلاثة أيام، وإعلان التوبة، والخروج بعد الصيام إلى الصحراء للدعاء برفع الوباء والتضرع والبكاء. (ابن شاهين الظاهري، ١٤٢٢، ٤/٢٦٤-٢٧١)، والتخصيص هنا لا يعلم أصله لا في الصيام ولا مكان التضرع، وقد وقع مثله لكبار الصحابة ولم يعلم عنهم هذا، بل عرف عنهم الدعاء بطلب الشفاء أو الصبر على البلاء، أو الانتقال لمواطن الشفاء بشكل منظم والحفاظ على التباعد. ومثله من أنواع الأدعية التي رويت بسند الرؤى.

"كتب نائب حلب بأن بعض أكابر الصلحاء بحلب رأى النبي صلى الله عليه وسلم في نومه وشكا إليه ما نزل بالناس من الوباء فأمره صلى الله عليه وسلم أن يأمرهم بالتوبة والدعاء وهو: اللهم سكن هيبة صدمي قهرمان الحروب بألطافك النازلة الواردة من فيضان الملكوت حتى نتشبث بأذيال لطفك ونعتصم بك عن إنزال قهرك. يا ذا القوة والعظمة الشاملة والقدرة الكاملة يا ذا الجلال والإكرام

وأنه كتب بها عدة نسخ بعث بها إلى حماة وطرابلس ودمشق.

.. وفي يوم الجمعة سادس رمضان نودي أن يجتمع الناس بالصناجق الخليفية والمصاحف عند قبة النصر فاجتمع الناس بعامة جوامع مصر والقاهرة وخرج المصريون إلى مصلى خولان بالقرافة واستمرت قراءة البخاري بالجامع الأزهر وغيره عدة أيام والناس يدعون الله تعالى ويقنتون في صلواتهم."(المقريزي، ١٩٩٧، ٨٦/٤)

أنكر بعض الفقهاء الفرار من الطاعون لعلة إدراك الموت به أو بغيره. (ابن حجر العسقلاني، د ت، ٣١٦)، "قال المدائني: كان بالكوفة طاعون سنة خمسين، فقال المغيرة بن شعبة لأبي موسى: انطلق بنا. فخرج إلى دابق من الطاعون فقال أبو موسى: إلى الله أبق لا إلى دابق، فخرج المغيرة...

.. وقال أبو إسماعيل عن مجالد عن الشعبي أن صديقاً لشريح خرج هارباً من الطاعون، فأقام بالنجف فكتب إليه شريح: إن المكان الذي أنت به بعين من لا يفوته طلب، ولا يعجزه هرب، والمكان الذي خلفت لا يعجل امرءاً إلى حمامه قبل أجله، ولا يظلمه أيامه، وأنت وهم على بساط واحد، وإن النجفة من ذي القدرة لقريب.

وقال أبو عاصم من ولد عباد بن زياد: كانت الطواعين بالشام كثيرةً وكانت الخلفاء وأبناء الخلفاء يتبدون ويهربون من الريف فينزلون البرية خوفاً من الطاعون. فلما أراد هشام بن عبد الملك أن ينزل الرصافة قيل له: يا أمير المؤمنين، لا تجزع فإن الخلفاء لا يطعنون، ولم نسمع بخليفة طعن ولم نره. قال: أتريدون أن تجربوا في؟

فتحول فنزل الرصافة وهي برية، وبنى فيها قصرين.

قال: وكان عبد العزيز بن الوليد ينزل أسيساً، فقدم على أبيه بدمشق غلام للوليد فقال الوليد لابنه عبد العزيز: يا بني، ارجع إلى منزلك. قال."(المبرد، د ت، ٢٢٠-٢٢٢)

وقد ثبت محاولة الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه إجلاء عبيد الله الجراح رضي الله عنه، وإجلاء عمرو بن العاص للناجين من الطاعون لمناطق النقاهة والنقاء؛ المرتفعة عن مواطن وأجواء الوباء. ومن مؤنة البخاري ترجمته لباب: **بَابُ مَا يُكْرَهُ مِنَ الِاحْتِيَالِ فِي الْفِرَارِ مِنَ الطَّاعُونِ.** (البخاري، ١٣١١، ٢٦/٩)، فالنهي على الكراهة وليس التحريم، والكراهة قائمة على الاحتيال للفرار المؤدي لزيادة الانتشار، وإلا فعمر بن الخطاب رضي الله عنه وكبار الصحابة وفقهائهم وكبار أئمة المهاجرين والأنصار نزلوا عند فتوى الخليفة خاصة بعد سماع حديث النبي، فالنص منطوق الدلالة بمنع الالتحاق بمواطن والوباء والابتعاد عنها، والفرار منها كما قال الخليفة، وعليه نص الفرار من المجذوم، وهو نص في مباعدة أصحاب الأمراض

المعدية، أما الإشـــكال فهو في فرار من كان بأرض الوباء، وهنا الكراهة، التي أفتى فيها والي عمر بالخروج من أرض الوباء لأرض صـــفاء هواء لا مخالطة فيها لغيرهم، وبذلك لا ينقل العدوى، ويستشفى البعض ويسلم الأصحاء من العدوى، وهو ما وقع ونجح.

كما اختلف الفقهاء في مشروعية الدعاء برفع الطاعون لما ورد من فضل الشهادة لموتاه والابتلاء به والصبر عليه، وكونه رحمة للمسلمين ونقمة على الكافرين، فكيف يُطلب رفعه؟

" قال المدائني: قال الحسن البصري وذكر عنده الطاعون: ما أحسن ما أبلى الله فيه: ارتدع مذنب، وأنفق ممسك، ولم يغلط بأحد."(المبرد، د ت، ٢٢٠–٢٢٢)، وثبت أن من مات بالطاعون شهيد. فكيف نسأل الله أن يرفع ما هو سبب في الشهادة؟ عَنْ عَائِشَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهَا أَخْبَرَتْنَا " أَنَّهَا سَأَلَتْ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنِ الطَّاعُونِ، فَأَخْبَرَهَا نَبِيُّ اللهِ صَـــلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَـــلَّمَ أَنَّهُ كَانَ **عَذَابًا يَبْعَثُهُ اللهُ عَلَى مَنْ يَشَـــاءُ، فَجَعَلَهُ اللهُ رَحْمَةً لِلْمُؤْمِنِينَ، فَلَيْسَ مِنْ عَبْدٍ يَقَعُ الطَّاعُونُ فَيَمْكُثُ فِي بَلَدِهِ صَابِرًا يَعْلَمُ أَنَّهُ لَنْ يُصِيبَهُ إِلَّا مَا كَتَبَ اللهُ لَهُ، إِلَّا كَانَ لَهُ مِثْلُ أَجْرِ الشَّهِيدِ.**" (البخاري، ١٣١١، ١٣١/٧، رقم ٥٧٣٤)

وذكر الحافظ ابن حجر العسقلاني" أربعة آداب، هي:

- سؤال الله العافية.
- الاستعاذة من السقم.
- الصبر على قضاء الله تعالى والرضا بما يقدره.

- الترغيب في حسن الظن بالله تعالى، والعيادة وفضلها. "(ابن حجر العسقلاني، د ت، ٣١٩)

واختلف الفقهاء في حكم القنوت في الصلاة لرفعه جماعة أو فرادى، وهو ما اختلف فيه، ولم يثب عن الصحابة أو كبار التابعين قولهم بالقنوت لرفع الوباء أو الطاعون، وإنما شاع بعدهم واشتهر في دولة المماليك.

" في طاعون سنتي (٧٤٩هـ - و٧٨٧هـ) هُرع للجوامع للصلاة والقنوت والتضرع إلى الله برفع البلاء، مع قراءة صحيح البخاري بالجامع الأزهر أياما، والدعاء بعدها لرفع الطاعون". (المقريزي، ١٩٩٧، ٨٦/٤)،

وفي طاعون ٨٣٠ هـ بمصر " يوم الجمعة خامس عشره:

- **جمع السيد الشريف شهاب الدين أحمد بن عدنان كاتب السر بأمر السلطان أربعين شريفا.**
- **اسم كل شريف منهم محمد.**
- وفرق فيهم من ماله هو خمسة آلاف درهم.
- وأجلسهم بالجامع الأزهر فقرأوا ما تيسر من القرآن الكريم بعد صلاة الجمعة.
- ثم قاموا - هم والناس - على أرجلهم فدعوا الله تعالى وقد غص الناس بالجامع الأزهر.

- فلم يزالوا يدعون الله حتى دخل وقت العصر.
- **فصعد الأربعون شريفا إلى أعلى الجامع وأذنوا جميعا.**
- ثم نزلوا فصلوا مع الناس صلاة العصر.

وانفضـــوا، **وكان هذا مما أشـــار به بعض العجم؛ وأنه عمل هذا ببلاد المشرق في وباء حدث عندهم فارتفع.** "(المقريزي، ١٩٩٧، ٢٠٨/٧)

فمن شـــدت الهول وعموم الهلاك كان العوام بل حتى الفقهاء يتعلقون بأي رأي يخلصـــهم من الوباء، فاخترعوا أدعية وخصصوا أوقات وفصلوا آدابا وشروطا لم يعلم أصلها، ولا دليلها، وإن كان لبعضـــهم مستمســـك العموم، ولأن عملهم كان تحت ناظر كبراء الفقهاء والمشـــايخ والأمراء والوزراء فقد أكسب التجربة شرعية وشهرة أخفت البحث في أصلها وأدلتها الفقهية، وهذه الأعمال التعبدية والأدعية والقربات ظهر منها العجب، لما كثر من الأراجيف والهول والفزع.

فمن الفقهاء من قال بعدم مشروعية القنوت حيث " لما وقع **طاعون عمواس في الشام ومات بسببه خيار وسـادات الصـحابة لم يقنت عمر رضـي الله عنه ولا أحد من الصـحابة رضـي الله عنهم.**

ومنهم من قال أن القنوت إذا نزل الطاعون بين المسلمين مشروع.

واستدلوا على هذا: بأن **الطاعون من جملة النوازل التي تنزل بالمسلمين فيشرع له الدعاء والقنوت والابتهال إلى الله بأن يرفعه،** كما يشرع في باقي النوازل والشدائد التي تنزل بالمسلمين.

وفي الحقيقة المسألة فيها قوة وإشكال." (العثيمين، ١٤٢٨، ٤/٤٣)

بحث الفقهاء مسائل الميراث الطارئة " إذ كان بالشام طاعون، فكانت القبيلة تموت بأسرها، حتى ترثها القبيلة الأخرى، فكتب فيهم إلى عمر بن الخطاب، فكتب: إذا كان بنو الأب سواء، فبنو الأم أولى، وإذا كان بنو الأب أقرب بأب، فهم أولى من بني الأب والأم."(عبد الرزاق، ١٤٠٣، ١٠/٢٦٠)

وكان من الموتى من تفقد جثثهم ولا يدرك إلا بعضها، فأشكل على الناس أحكام الدفن، وهو ما أفتى فيه غير واحد بأن " الميت إذا أصيبت منه عضو أو رأس أو يد أو رجل أو نصفه.. يغسل ويكفن ويحنط ويصلى عليه، فلا بأس بذلك.

صلى أبو أيوب على رِجْل، ويقال أن عمر في طاعون عمواس كان يجمع العظام ويصلي عليها."(ابن حنبل، ١٩٨١، ١٤١)

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الخاتمة:

بتتبع مظان المسائل المتعلقة بنزول الوباء وعموم الجوائح نلحظ تفعيل الفقه المقاصدي في النظر في أحوال الناس وعوائدهم الصحية والاجتماعية والإيمانية، لما يصبح العامة من الفزع والجزع لكثرة مصابهم ونوائب الدهر التي لحقت بأهلهم ومن حولهم، لكن ساهم الخلاف العقدي والفقهي في أصول بناء الاستدلال وتوجيه الدلالة في اختلاف الفتاوى، مع تبصر الفقهاء بمراجعة الحكماء في النظر في الوباء وماهية وخصائصه وسبل الوقاية منهم. وهو ما نلمس في اختلاف تعامل المجتمع الديني المسلم مع نوازل الجوائح العامة من زمن لآخر ومن منطقة لأخرى، بحسب قوة الدولة السياسية والعلمية، وحجم الوباء نفسه ونوعيته، التي كانت لها تأثيرات على المفاهيم التطبيقية العملية والعلمية في المجتمعات المسلمة قديما، في التباعد والحجر والعمارة وإدارة الأزمات الصحية الوبائية كالطاعون والكوليرا والجذام والجذري وغيرها، مما طور فقه نوازل الأوبئة، نحو تفعيل المقاصد الكلية، وتصوري المسائل الفقهية النادرة والحادثة في أحكام الصلاة الجماعية والطهارة بالمياه وأحكام الجنائز والميراث.

وقد ثبت في علم النفس الاجتماعي أن الشعوب وقت الصدمات الكبرى تميل لقبول الخرافات وغرائب الأقوال وشواذ الآراء، وتستحب مبهم المصطلحات وشطط العقائد، لأنها تمنعها من جهد عقلها وفهمها، فتضفي السر على كنهها، وهكذا الشعوب المتخلفة التي يعشش فيها الجهل تبني نموذجها المعرفي على اللامنطق، وتسقط العلم وتفرض الغوامض والمبهمات في

تفسير قضايا حياتها، وهو ما نجده في أيام دولة المماليك، فقد تبرك الناس بالمجانين والفسقة، ونسبوا الولاية والبركة والعلم لأميين، واستغاثوا بهم، ونسبوا لهم الحكمة والمعارف رغم إقرارهم بأميتهم، بل كان فيهم من يجهلون أصله وفصله وحاله ودينه، فاستحدثوا عبادات وأذكارا وأوردة وقربات، وتصدروا على أهل العلم ممن بقي على قيد الحياة، وقد فصل عنهم العلماء وسردوا غرائب ونوادر مذهلة، تكشف مستوى تفشي الخرافة والجهل بين الناس لقبول تلك الأفكار.

النتائج:

- كشفت المصادر التاريخية والفقهية والحديثية عن **تغير في البنية الاجتماعية الدينية** بسبب الأوبئة.
- أدت الأوبئة لهلاك الكثير من العلماء وطلبتهم فاختفت علومهم وآثارهم وتأثيرهم في بلدانهم.
- ساهمت الجوائح في **بروز أحكام عموم البلوى** تكيفا مع الضغوط النفسية والاجتماعية والاقتصادية.
- أفرزت الأوبئة ظهور **حركات دينية وطوائف مغالية** وأخرى منحرفة.
- أدت الأوبئة لانهيار نظم حكم سياسية؛ **فانهارت معها مذاهبها الدينية** بعد تغير النظام السياسي.
- ســـاهمت الأوبئة في **تخفيف الصـــراع الطائفي** حينما تجلى الموت للجميع، فخفت الردود وتقاربت الرؤى بين بعض الفرق الإسلامية.
- اختلال التركيبة السكانية العمالية والطبقية والعرقية.
- تباين كبير في الكثافة السكانية بين المدن والقرى، إذ أن كثيراً من القرى اختفت تماماً بفعل الوباء.
- – تغير ديموغرافي حاد، وانهيار نسبة العمالة في الزراعة والرعي والجند.
- قلت المنتوجات والمحاصيل الزراعية والحيوانية.
- انخفاض حاد في القدرة الشرائية، بسبب التضخم وانخفاض قيمة الدينار الذهبي.
- انهيار أخلاقي في المجتمع، وانتشار السرقة والاحتيال من المحتاجين والمعدمين.
- انتشـــار الجهل والخرافات والمشـــعوذين والمنجمين، وغرائب الآراء والفتاوى، وكثرت الأراجيف والإشاعات.

- بناء المارستان (مستشفى) في مدن الشام جميعها، لمداواة ورعاية المطعونين والمصابين بالأوبئة كالحمى وغيرها.
- إنشاء حوانيت أو مغاسل الموتى، تختص بتغسيل وتكفين الفقراء من موتى المسلمين ثم يتم دفنهم في وقت سريع.
- إغلاق حوانيت الخمر في مناطق، وابتعاد أهلها عن ارتكاب الفواحش والمنكرات.
- تطبيق الحجر الصحي، بعزل المرضى، ومنع المخالطة، والانتقال للأراضي العالية لنقاء هوائها.

قائمة المراجع:

ابن حجر العسقلاني، أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد. *بذل الماعون في فضل الطاعون*. أحمد عصام عبد القادر الكاتب. الرياض: دار العاصمة، ١ ط، د ت.

ابن حجر العسقلاني، أحمد بن علي أبو الفضل الشافعي. *فتح الباري شرح صحيح البخاري*. تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي – محب الدين الخطيب. ١٣ مجلد. بيروت: دار المعرفة، ١ ط، ١٣٧٩.

ابن حنبل، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني. *مسائل أحمد بن حنبل رواية ابنه عبد الله*. تحقيق زهير الشاويش. بيروت: المكتب الإسلامي، ١ ط، ١٩٨١.

ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد بن محمد، ابن خلدون أبو زيد، ولي الدين الحضرمي الإشبيلي. *ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر*. تحقيق خليل شحادة. بيروت: دار الفكر، ٢ ط، ١٩٨٨.

ابن شاهين الظاهري، زين الدين عبد الباسط بن أبي الصفاء غرس الدين خليل الملطيّ القاهري الحنفيّ. *نيل الأمل في ذيل الدول*. تحقيق عمر عبد السلام عمر عبد السلام تدمري. ٩ مجلد. بيروت: المكتبة العصرية، ١ ط، ١٤٢٢.

ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر القرشي البصري الدمشقي. *البداية والنهاية*. ١٥ مجلد. بيروت: دار الفكر، ١ ط، ١٤٠٧.

ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر القرشي البصري الدمشقي. *البداية والنهاية*. ١٥ مجلد. بيروت: دار الفكر، ١ ط، ١٤٠٧.

الجبرتي، عبد الرحمن بن حسن. *تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار*. ٣ مجلد. بيروت: دار الجيل، ١ ط، ٢٠٠٤.

الحِميرى، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد المنعم. *الروض المعطار في خبر الأقطار*. تحقيق إحسان عباس. بيروت: مؤسسة ناصر للثقافة، ٢ ط، ١٩٨٠.

الدينوري، المعارف المؤلف: أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة. *المعارف*. تحقيق ثروت عكاشة. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢ ط، ١٩٩٢.

الذهبي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز. *تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام*. تحقيق عمر عبد السلام التدمري. ٥٢ مجلد. بيروت: دار الكتاب العربي، ٢ ط، ١٤١٣.

الطبري، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر. *تاريخ الرسل والملوك*. ١١ مجلد. بيروت: دار التراث، ٢ ط، ١٣٨٧.

الطراونة، طه ثلجي. *مملكة صفد في عهد المماليك*. بيروت: دار الآفاق العربية، ١ ط، ١٩٨٢.

العثيمين، محمد بن صالح بن محمد. *الشرح الممتع على زاد المستقنع*. ١٥ مجلد. بيروت: دار ابن الجوزي، ٢ ط، ١٤٢٨.

العدوي، أحمد. *الطاعون في العصر الأموي؛ صفحات مجهولة من تاريخ الخلافة الأموية*. بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، ١ ط، ٢٠١٨.

المبرد، محمد بن يزيد بن عبد الأكبر الثمالى الأزدي، أبو العباس. *التعازي والمراثي والمواعظ والوصايا*. تحقيق إبراهيم محمد حسن الجمل. القاهرة: نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، د ت.

المقريزي، أحمد بن علي بن عبد القادر، أبو العباس الحسيني العبيدي تقي الدين. *السلوك لمعرفة دول الملوك*. ٨ مجلد. بيروت: دار الكتب العلمية، ١ ط، ١٩٩٧.

بكري، حسين بن محمد بن الحسن الدِّيار. *تاريخ الخميس في أحوال أنفس النفيس*. ٢ مجلد. بيروت: دار صادر، ١ ط، ١٩٧٣.

بولقطيب، الحسين. *جوائح وأوبئة مغرب عهد الموحدين*. الرباط: منشورات الزمن، ٢٠٠٢.

حسين، أحمد عبد الحميد. "عودة الأوبئة: تاريخ من التحولات الاجتماعية – بوابة الأهرام". إخباري. *بوابة الأهرام*. ٨ أبريل، ٢٠٢٠. تاريخ الوصول ١٠ سبتمبر، ٢٠٢١ . https://gate.ahram.org.eg/News/2393529.aspx

خليفة بن خياط، أبو عمرو خليفة بن خياط بن خليفة الشيباني العصفري البصري. *تاريخ خليفة بن خياط*. تحقيق أكرم ضياء العمري. بيروت: مؤسسة الرسالة، ٢ ط، ١٣٩٧.

سبط ابن الجوزي، شمس الدين أبو المظفر يوسف بن قِزْأُوغلي بن عبد الله. *مرآة الزمان في تواريخ الأعيان*. تحقيق محمد بركات وآخرون. ٢٣ مجلد. دمشق: دار الرسالة العالمية، ١ ط، ١٤٣٤.

طقوش، محمد سهيل. *تاريخ الدولة الأموية*. بيروت: دار النفائس، ٧ ط، ٢٠١٠.

عبد الرزاق، أبو بكر بن همام بن نافع الحميري اليماني الصنعاني. *المصنف*. تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي. ١١ مجلد. بيروت: المكتب الإسلامي، ٢ ط، ١٤٠٣.

عبدالرازق، عمر - فياض، سارة. "الأوبئة في كتابات المؤرخين وخيالات المبدعين". إخباري . *BBC News عربي*. ٤ ديسمبر، ٢٠٢٠. تاريخ الوصول ٨ سبتمبر، ٢٠٢١ . https://www.bbc.com/arabic/art-and-culture-52255283

by ، Nicholas. "Infographic: The History of Pandemics،LePan Death Toll". *Visual Capitalist*. 14 مارس، ٢٠٢٠. تاريخ الوصول ٧ سبتمبر، ٢٠٢١ . https://www.visualcapitalist.com/history-of-pandemics-deadliest/